الفصل الأول

الشهابيّة هويّة وقضيّة

الفصل الأول

حقائق التاريخ لا تسقط في مجاهل مرور زمن.
لأن التاريخ هو من جزئيات الزمن... من صُلبه، ومن مجموعة أحداث عمره.
ومن كثافة بعض مكوّناته.
كل تاريخ هو زمن عتيق، لا يُعاد إلى «ما كانَه» ولا إلى «مكانِه».
لكنه، ولأنه التاريخ، ما من شيء بوسعه أن يُزحزحه أو يزيله من مقرّ مكانيّته.
ومثل الزمن هو التاريخ، منبع ومصبّ ومستودع كل «التواريخ».
هو الذاكرة التي «لا تفقد ذاكرتها».
ولا تنسى أحدًا... من كلّ من وُلد وعاش ومات.
الإنسان هو الذي ينسى. أو يتناسى. أو يحاول أن يطمر ما لا يُطمر في حُفر الجهل أو التجاهل أو الغطرسة!!
لكنه يكتشف دائماً، ومتأخراً دائماً، «أن القبور لا تبتلع الأسماء».
أن القبور تفكّك «شخص» من كان حيّاً ولا تستطيع شيئاً إزاء «شخصيّته».
من هنا نعرف أن فؤاد شهاب، الشخص، مات عام ١٩٧٣.
أما المواطن، النبيل، الذي أنجبته الهوية اللبنانيّة من رحْم «إنجاب أصحاب المهمّات الصعبة» وعَهدت إليه، في لحظة إنبِلاج فجر إستقلالها، بمسؤولية تأسيس وبناء جيشها، فكان أميناً على «العهد».
المواطن، الأمين، الذي عادت الجمهورية اللبنانية فسلّمته أمانة إنقاذها من عودة سقوطها في إدمانها على تناحر مكوّنات كيانها وصراعهم العبثي فوق حفافي إنتحارياتهم، فكفكف الدموع وعالج الجراح وامتشق إرادة حبّ بناء دولة حديثة من تحت ركام «دويلات الإرتجال». وسلّم الأمانة إلى «أصحابها» في اللحظة المنصوص عنها في الكتاب... أي الدستور.
هذا المواطن، الأمير، هو فؤاد شهاب «الهوية».
وهو القضية التي ما تزال حيّة، ومعلّقة أيضاً، في ضمير الوطن، وفوق صدره.
والشهابية، بصفتها «هوية وقضيّة» هي لبّ موضوع هذا الكتاب...
وليس فؤاد شهاب، الشخص.

قضيّة أُحيلت بإستعجالٍ مقصود وممنهج إلى «أرشيف الإستيداع» المقام في تلك المناطق الضميرية الرمادية التي ما تزال تعجز، وعلى الرغم من كلّ قوة كفرها، عـن حجب تلك الأضواء التي مـا تزال تنبعث من أعماق الحقائـق الخالدة.

نُعيد فتح قضيّة الشهابيّة، مرّة أخرى، ليس شغفاً بالرومنسيات.

ولا للتنافس مع أساليب «قناصة إستنهاض الشعبيات»...

وإنما لتسليم «مشعل» من «مشاعل» الإعتزاز بلبنانيتنا إلى أجيالنا الجديدة التي تُساق عبر اختصارات وتعميات وانتقائيات «كتاب تاريخنا الوطني المجهّل»، إلى ركوب موجات «الغربة عن الذات».

تسليم أبنائنا «وتذخيرهم» بما قد يعيدهم إلينا من محاولات إبتعادهم الباحث عن الحقائق في مجاهل أبعاد غير أوطان.

لهذا كان إهداء الكتاب موجّهاً، أولاً، إلى كلّ من تغرّب أو اغترب عن الوطن، وكل من هجره، حضوريّاً، بعد خروجه هو، الوطن، من مدار دورة «طبيعة حياته».

عام ١٩٨٠، كنا أوّل من أصدر كتاباً عن «الشهابية» بعد رحيل الرئيس فؤاد شهاب.

كان ذلك في زمن الشهابيّة «الصعب»، وزمنها «غير المؤاتي».

وأثناء محاولة تغييب عهدها، لا بل «عهودها» عن الصفحة الأولى لسجلّ تأسيس الدولة اللبنانية.

فإبان نهاية عهد الرئيس الياس سركيس، وخلال احتدام ذاك المخاض الرهيب الذي أطلق «مُسوخ وشياطين» اجتياح عام ١٩٨٢، من جهنّميات العدو الإسرائيلي، وأباح لها انتهاك قلب خارطتنا، العاصمة بيروت، وجدنا متّسعًا مبدئيًا، لا منطقياً، لكتابٍ عنوانه: «**الشهابيّة وسياسية الموقف**».

موقف كاد أن يكلّفنا، حينها، وقوفاً إلزامياً في قفص إتّهام «قوى الأمر الواقع» !!!

لأن زمن تلك المرحلة، السياسي، لم يستسغ ولم يكن يسمح بإستحضار أي ذكر، أو

نخب تسليم الأمانة... عام ١٩٦٤، الرئيسان شهاب وحلو مع كامل الأسعد وحسين العويني

إحياء أي فكر، يكون يتماهى مع تلك «المدرسة» التي وكّدت ملامح عروبة لبنان، وأرست قواعد خصوصيتها وتمايزها وفرادة إستقلاليتها.

وطُلب منا الإحجام عن طبع الكتاب فلم نرضخ... ولم نفعل.

لكننا لم نوزّعه أيضًا وفق «الآليات» المعتمدة لنشر الكتب.

فأهديّنا معظم نسخه، الخمسة آلاف، لأشخاص اهتدوا إليه في بحثهم عن «الإصدارات» الشهابيّة «النادرة»، وسط المناخ العاصف الذي كان قد بدأ و«أمعن» في

شهاب، حلو وسركيس، الثلاثي الذي كسر قواعد الوراثة...

دكّ أعمدة «هيكل وجودنا» وأهمّ جسور وحدتنا، من جديد. وكان علينا أن ننكفئ، وأن نعيد محاولتنا تلك، إلى معاقل «عقلانية اعتدالها»، كي لا نسقطها، مرة أخرى، في تلك «المعتقلات القسرية» التي كنا نؤمن أنها ستتحرر حتماً منها في يوم ما.

مؤخّراً، وبعد مرور أكثر من نصف قرن على إنطلاقة التجربة الشهابية،

بعد سنواتٍ طويلةٍ طويلة من إستباحة «بنائها القِيَمي»، وتشريد وتهجير و«تكفير رموزها»، تعود «أقلام عديدة» من خيبات دورانها العبثي في متاهات «زجليات اللافكر

السياسي»، التدميرية؛ تعود للتنقيب في فخاريات فخار الفكـرة الشهابية، لا بل «المدرسة الشهابية» عما يكون قد فاتها أو فوّتته على نفوسها، وعلى غيرها.

«أقلام»، قد تكون ساهمت، وفي لحظة إبتعادٍ عن «إعتدالياتها» ومتوجّبات «عدلها»، في تهشيم وتهميش فرصة «ذاك الإعتدال» الذي سعى إلى إبعاد الكؤوس المرّة التي تجرّعها الوطن، كل الوطن، بعد ذلك، هو وكلّ ناسه وكلّ أقلام مفكّريه.

اليوم وبعد صدور عدة محاولات «توثيقيّة» لروزنامة «حراك الشهابيّة السياسية، و«لمطبّاتها الهوائيـة»، نرى أن «لغـة الصّحوة المتأخّـرة» لم تتطرّق، وبوضوحٍ كلّي، إلى أبهى ما في مشهديّة الشهابيّة من صور، وأهم ما كان في طروحاتها.

هذا «الأبهى» وهذا «الأهم»، تجسّدا في مفهوم «الحداثة الرؤيوية» التي طبعت دولة المجتمع، ومجتمع الدولة الشهابية.

حداثة رؤيوية عزّزت محاكاة بلدنا الجميل، الصغير لتسمية: «سويسرا الشرق»، خلال حقبة مشرقة من تاريخنا المعاصر.

حداثةٌ بنَتْ هيكليّة مواءمة كياننا الوطني مع حقيقة إنتمائه؛ وأطلقت محفّزات تبنّي «المواطنة» بديلاً عن تلك الوطنيات المستوطنة بؤر طوائفها.

حداثة رسمت ونفذت خطّة بناء «الدولة الهامَة»، و«الدولة القامَة»، المقامة فوق مداميك سيادة القانون والعدالة الإجتماعية الخلاقة المصانة بمؤسسات رقابيّة متشدّدة في محاسبتها للفساد والمُفسدين، قبل الفاسدين.

دولة تفاعليّة المجتمع مع كنوز قيمه التاريخية بكلّ ما فيها من إبداع الرؤوس، وما يرفع الجِباه والرؤوس.

دولة «الكرامة الوطنية»، المتأهبة في أبّهة وقوفها على «حدود الكيلومتر ١٠١» وعلى كلّ حدود سيادتها السائدة لا السائبة.

دولة الملاذ الحاضنة للملتجئين إليها، طلبًا لحماية حقوقهم الإنسانية الأساسية، التي أوّلها: الحرية.

دولة الأمن المستقرّ المؤسّس للإقتصاد المزدهر.

وهذه الدولة، بالذات، التي أرادها الرئيس فؤاد شهاب بديلاً عن «الأمن المستباح» الذي تسبّبت به ثورة ١٩٥٨ المسلّحة، التي أعادت إشعال نيران النعرات الطائفية المتوارثة، من ضمن إشتعالها بحُمم براكين صراعات المحاور الإقليمية والدوليّة، التي أنتجتها «الحرب الباردة»..

هذه الدولة التي أُلبست قبضتها الحديدية - كما قيل - بعد المحاولة الإنقلابيّة الفاشلة، نهاية عام ١٩٦١، وتعرُّض النظام والكيان للخطر، أُسقِطت، بعد ذلك، في أفخاخ غوايات الدولة الأمنيّة الإستقوائية بسبب تلك التخطيات لحقوق خصومها السياسيين. تخطيات وتجاوزات مورسَت عبر «وسائل مخفيّة» من قبل ومن قلب تلك «الغرف» التي كان يديرها «الدكتيلو» - تسمية صحفية - بعيدًا عن الأنظار.

وعلى الرغم من تلك التدخّلات الخاطئة التي شوّهت «الدولة الأُمنية» التي أرادها الرئيس فؤاد شهاب، لم يُقدِم «المكتب الثاني»، وفي كلّ ما تعرّض له مما لا حقّ له فيه، على ارتكاب أي تصرّف قمعي جماعي للحريات العامة، ولم يُتّهم بأية عملية إغتيال سياسي على غرار ما كانت وما تزال ترتكبه أجهزة العديد من أنظمة المنطقة، وأجهزتها الأمنية، والعديد من الأجهزة الأمنية في «دول ديمقراطية» عريقة. هذه الإشارة الأخيرة، لا تسعى أبداً إلى تبرير أو تبنّي أية أسباب تخفيفيّة يكون بوسعها تغيير «طبيعة» تلك الممارسات التي كان من الممكن تداركها.

لكنّ الإضاءة على ما لم تُقدِم عليه وإعادتها إلى حجم مبالغات إستثمار فائض القوة المستمدّة من الإجماع الجماهيري حول شخصية ونقاء صورة مؤسّس الجيش اللبناني ومنقذ الوطن من الثورة الأهلية الدمويّة، صاحب الثروة الشعبية النادرة؛

هذه الإضاءة، هي التي ستُظهر أن تلك «الممارسات» هي التي أضرّت بالرئيس شهاب، قبل غيره، وهي التي شوّهت مفهوم «الدولة الأُمنِية» التي أرادها، على الرغم من عدم تعرّضها للحريات العامة التي احتفظت بحرمتها وحدود أصولها.

لذلك،

وإنصافًا له، للرئيس الإستثنائي، يجب الإقرار بأنه هو، الرئيس فؤاد شهاب شخصيّاً، هو الذي أسقط كلّ إنجازات هذه الدويلة المتخفّية ومفاعيلها السياسية، عبر رفضه الحازم والحاسم لعملية تجديد أو تمديد ولايته الدستورية.

ولم يتأثّر بتلك الهتافات والشعارات التي هاجت بها الجماهير وماجت حين قالت: «لا تتركنا في بحر هائج».

فطوى صفحته بيده وفقاً لما نصّ عليه الكتاب، أي الدستور، سلّم الأمانة ورحل...

إستمرارية العهد؟!...

رفض الحكم عام ١٩٥٢، فانتُخِب عام ١٩٥٨.

أنجز ما أنجزه في سنتين واستقال عام ١٩٦٠. لكن أُعيدت مبايعته من قِبَل خصومه قبل مؤيّديه، لإستئناف فترة ولايته.

ورفض العودة إلى سُدّة الرّئاسة مرة أخرى، عام ١٩٧٠، فوق موج بحر مؤيّديه.
فؤاد شهاب، هذا هو، الشخص.
لكن الهوية الوطنيّة الشهابيّة إمتدّت إلى أبعد من ذلك بكثير.
أما قضيّتها، فيجب... ويجب أن يُعاد فتح ملفّها على مصراعَي مساحة تاريخنا الحديث.

•••

الرئيس شهاب لم يتكلّم... إلاّ من على منبر حقّه الدستوري فقط. فاستطاع أن يكون وفيّاً لأصول العطاء.
«كنت وما زلت الرجل الذي عرفتم، عزوفاً عن القول، وإيثاراً للصمت في أداء الواجب».
في مكانٍ آخر من التاريخ، يقول «الكونت موسكا»:
«في فوضى المجادلات، إحرص ألا تصرّح عن فكرة أوحى بها المنطق إليك. أسكت... فالناس المرهفون سيرَون فكرك حتماً في عينيك».
سكت الرئيس فؤاد شهاب طويلاً... وطويلاً جداً.
تُرى هل لأنه قرأ ما كتبه بول كامبون: «بوسعنا قياس حجم رجل الدولة من مقدرته على أن يسكت، وألاّ يكتب أبداً» ؟؟
أم لأنه لم يقرأ «جون ستيوارت ميل» عندما أكّد:
«إن الإعتقاد بأن الحقيقة تنتصر دوماً على الاضطهاد هو مزاح كاذب يردّده الرجال واحدهم بعد الآخر فينزل عندهم منزلة الشيء البدهي حتى ولو أثبتت التجارب عُقم معناه. إن التاريخ مليء بالأحداث التي تُظهر بأن الإضطهاد قد حوّل الحقيقة إلى مجرّد صمت بارد» ؟؟